أجل فقد تصدر لقيادة الجمهور غير الأكفاء . وألو الأهواء . وتمادوا فى باطلهم حين تخلى رجال الدين عن واجبهم . وتنحوا عن وظيفتهم . فكانت العاقبة ماترى مما يحتاج إلى أزمنة طويلة . وجهود عظيمة ، يقوم بها جمع عظيم من أولى الغيرة على الدين وذوى الشجاعة فى إعلاء كلمة الله ، والدعوة إلى طاعة الله بعد إحكام العدة والحصول على كامل الذخيرة والخبرة التامة بأساليب الاقناع ووسائل التأثير ، مع صدق النية والإخلاص فى العمل ، والتحلى بالرفق والتجمل باللين وسعة الصدر .

فهذا هو سبيل الحكمة لايضل من سلكه . ولا يزل من تمسك به . فإنه نعم السبيل الذى يوصل إلى الغاية المقصودة ، والطريق القويم الذى يرشد إلى الضالة المنشودة . قال تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

الفصل الرابع

فى الوعظ والإرشاد

تعريفه : اعلم أن لهذا الفن ثلاثة أسماء : وعظ . وتذكير . وقَصص . فالوعظ والموعظة والعظة النصح والتذكير بالعواقب سواء كان بالاستمالة والترغيب ، أم بالزجر والترهيب . قال ابن سيده : هو تذكيرك الإنسان بما يُلين قلبه من ثواب وعقاب . يقال وعظته فاتعظ إذا أثرت فيه الموعظة وأفادت .

وفى الاصطلاح يطلق على القول الحق الذى يلين القلوب ويؤثر فى النفوس ويكبح جماح النفوس المتمردة . ويزيد النفوس المهذبة إيمانا وهداية .

والتذكير : تعريف الخلق نعم الله عز وجل عليهم ، وحثهم على شكره وتحذيرهم من مخالفته .

والتذكر يقال على الاتعاظ ومنه قوله تعالى : « وما يتذكر إلا من ينيب » وقوله « سيذكّر من يخشى » ومثله الادكار « فهل من مدكر » .

(والقَصَص) تتبع القصة الماضية بالحكاية عنها والشرح لها . والقَصاص من يفعل ذلك . وهو فى الغالب عبارة عمن يروى أخبار الماضين — وكثير من الناس يطلق على الواعظ اسم القاصّ — وعلى القاصّ اسم المذكر . والتحقيق ما ذكرنا .

وأما الإرشاد : فهو الهداية إلى الطريق الموصل إلى المطلوب — والرشاد والرشد بضم فسكون ، والرشد بفتحات ، كما فى القاموس ، الهداية والاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه . يقال استرشد الشخص إذا طلب الرشد أو اهتدى . وقد يطلق الوعظ والإرشاد فى عرف الخطباء والأدباء على الخطابة الدينية سواء أكانت تعليمية لبيان المسائل الشرعية الاعتقادية أو العملية أو الخلقية ، أم تأديبية لإيقاظ الناس من غفلتهم بالتذكير والإنذار .

وإجمالا فالوعظ هو النصح والتذكير بالخير والحق على الوجه الذى يرق له القلب ويبعث على العمل . والإرشاد الحث على الخير والتحذير من الشر على الوجه المتقدم وهو الترغيب والترهيب .

وغايته : صلاح المعاش والمعاد والفوز بسعادة الدارين . وفضله عظيم . وشرفه جسيم . فإنه متعلق بطب الأرواح وعلاج النفوس لتصل إلى السعادة .

ولما كان الإنسان مركبا من الجسم والروح ، وكان كلاهما عرضة للأمراض والعلل ، لا جرم كان محتاجا إلى طبين ومتشوفا إلى علاجين . علاج الجسم وعلاج الروح ، ولا شك أن أفضل الطبين ما أصلح أشرف الجزأين ، ولا يخفى أن طب الأجسام قد يصادف ذا روح شِرِّيرة ونفس خبيثة ، فتكون صحتها فساداً وشرا على المجتمع . ومحال أن يكون مثل هذا فى طب الأرواح فهو دائما مفض إلى الخير والصلاح

ويشرف فن الوعظ والإرشاد على بقية فنون الخطابة بأمور : (الأول) أنه وظيفة الأنبياء والمرسلين ، ومن على سننهم من العلماء العاملين والهداة الراشدين والعظماء المجاهدين : فانهم إنما بعثوا لهداية العالم وسن طريق السعادة للناس فى الدارين بتعليمهم عند الجهالة ، وإيقاظهم من الغفلة ، ووقفهم عند حدود الأدب ،

عند التمرد لينقذوهم من حضيض الجهـل والرذيلة ، إلى ذروة العـلم والفضيلة (الثانى) من حيث إنه يتعلق بأشرف الأمور وأخطرها — أعنى الأمور الروحية — (الثالث) من حيث الغاية أى سعادة الحياة بالتحلى بالفضيلة والتخلى عن النقيصة ثم الفوز بالسعادة الدائمة .

أثره فى تهذيب النفوس

معلوم أن الأمراض والعلل تعرض للأجسام فتذهب بجمالها . وكثيراً ما تودى بحياتها إذا لم تسعف بالعلاج الناجع قبل استفحالها واشتداد خطرها . والقلوب كالأجسام يعرض لها من الأمراض والعلل ما يطفىء نورها ، وقد يفقدها حياتها ، وذلك بورودها موارد الغى والضلال . وانهماكها فى اللذات والشهوات والتهاون بالأوامر والنواهى ، وعدم المبالاة بأنواع الفسوق والفجور ، وسيئات البدع ونبذ الآداب الدينية والأخلاق المحمدية ، وارتكاب كل مالا يرضاه الشرع والعقل من الشرور والقبائح .

فمن هذه الأفعال تكون أمراض القلوب وعللها ، قال تعالى : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » ركبها كما يركب الصدأ وغلبها ، وهو أن يصر على المعاصى ويسوف التوبة حتى يطبع على قلبه فلا يقبل الخير ولا يميل إليه : ولا دواء لها إلا مراهم الشريعة الغراء المركبة تركيباً علمياً كيماوياً دقيقاً من أجزاء الخطب والمواعظ والإرشادات والنصائح ، من الكتاب والسنة ، فبهذه المواعظ والنصائح دون سواها تصح النفوس . وتسلم القلوب من المخاطر ، وترجع عن غيها إلى رشادها وتعدل عن الطريق العوجاء إلى الصراط السوى — وبالوعظ والتذكير تتهذب النفوس وتتنبه العقول من غفلتها . وتستيقظ من رقدتها . وتستنير البصائر بنور الطاعة بعد أن أظلمتها المعاصى . قال بعض الحكماء : الموعظة موقظة للقلوب من سِنة الغفلة . ومنقذة للبصائر من سكرة الحيرة . ومحيية لها من موت الجهالة . ومستخرجة لها من ضيق الضلالة .

وعلى الجملة فالوعظ والإرشاد هو العلاج الوحيد لصلاح العالم ، والدين الحنيف هو الدواء المفيد لشفاء القلوب من أمراضها ، ولا سلامة للعالم من مخاطر الشقاء إلا به ، ولا ريب أنه إذا ترك علاج القلوب من هذه الأمراض استفحل أمرها . ومتى أهمل تطهير النفوس من أدران النقائص والرذائل عظم خطرها وانتشر الفساد وهلك العباد ، وزاد البلاء ، وساء حال المجتمع الإنسانى .

والبرهان الحسى قائم على أن الأمة التى انتشر فيها الوعاظ والخطباء تحيا بمقدار كثرتهم وتأثيرهم ، وأن المعنى الذى يتناولونه فى نصحهم وإرشادهم يكون أكثر انتشاراً وأشد رسوخاً فى نفوس تلك الأمة . وأن الأمة إذا فرطت أو أفرطت فى شىء يستعان دائماً على اعتدالها بوعاظها وخطبائها .

فالواعظ الماهر والخطيب الحكيم ، يستطيع بما وهبه الله عز وجل من نور الحكمة . وقاطع الحجة . وساطع البرهان . وقوة البيان . ومتانة علمه بتأليف وتركيب هذه الأدوية النافعة ، أن يصحح القلوب من أمراضها ، وينبه العقول من غفلتها ويطهر النفوس من أدران النقائص والرذائل . وينير أمامها السبل الموصلة إلى الرشد حتى ترجع عن غيها وتعود إلى حد الاعتدال . وتتحلى بالفضائل والكمال . وبالله تعالى التوفيق .

الفصل الخامس

القَصَص والقصاص فى الصدر الأول

القصاص هم الذين يقصون على الناس ويكون من علمهم التفسير والأثر والخبر عن الأمم البائدة وغيرهم . ينقلون ذلك موعظة واعتبارا ، وكانوا فى القرن الأول يقدمونهم فى حروب بنى أمية ليقصوا على المقاتلين أخبار الشهداء وفضائلهم ، وما وعدوا به فى الجنة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ليُحَمِّسوهم بذلك قبل لقاء العدو ، حتى لا تستولى عليهم رهبة ، ولا يملكهم فزع ، ولا ترد وجوهَهم